سلسلة دروس (رفع كفاءة طالب العلم ليؤدي دوره في الإصلاح)

المحاضرة الخامسة:

وقفات مع صفات طالب العلم المصلح من خلال قول الله تعالى:

﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾.

✍ حسين عبد الرازق

الحمد لله رب العالمين وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله ﷺ ؛ أما بعد:

أهلا بطلاب العلم والهدى؛ أحب عند قراءتي للوحي أن أدخل بسؤال أو موضوع أطلبه وأجمع وجوهَه ونظائره، وحينما قصدت تتبع التشريع والأمر والنهي والتخويف والإنذار والوعيد وجدتَ أن أكثر من له نصيب من ذلك هم سادة الناس الأنبياءُ عليهم السلام فهم أكثر من أمر ونهي وخوّف وأُنذر، وفي موضع ذكر سبحانه الأنبياء وما كانوا عليه من علم وهدى ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وربما من أعظمها قول الله لنبيه الذي بقي ألف سنة إلا خمسين عاما مجاهدا داعيا صابرا ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ وأعظم من له نصيب من ذلك هو عبد الله ورسوله محمد ﷺ سيد ولد آدم وأعظمهم علما وأشدهم خشية ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾. وفي الإسراء السورة التي رفع بها مقامه نصيب كبير من الإنذار: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ومنه: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.. ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ ، ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ وأكثر من ذلك....

ومن ذلك: ﴿ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾، كما قال من قبله: ﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾ ، وقال ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

وذلك أعظم صور الأمر والنهي أن يكون صورة عملية حية لمراد الله تعالى علما وعملا ودعوة ويصبروا عليها حتى يلقوا ربهم، ومن بعدهم رؤوس الناس ومتبوعيهم من الأحبار والرهبان والربانيين والملوك= فهم سراة الناس وأسوتهم وصلاحهم سبب عظيم لإصلاح الناس وحصول الغاية من خلقهم: عبادة الله وحده بما شرع وبفسادهم.

لذلك فإن كانوا حقيقين بها علما وعملا اقتربوا من الأنبياء وتكتب شهادتهم ويُرفعون عند الله وكانوا أولياءه وهو معهم، ويكون لهم أجور أتباعهم، وكلما قصروا فيها وأخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم نزلوا. حتى يكون مثلهم كالحمار يحمل أسفارا أو ككلب يلهث ولا يقيم الله لهم وزنا وحملوا أوزار من أضلوهم (وليحملن أثقالهم. عليك إثم الأريسين/ ومن أكثر ما اعتنى الوحي ببيانه إنذار أئمة الناس وأمرهم ونهيهم وذكر قصص الصالحين منهم والفاسدين

كل من اتخذه الناس إماما ملكا كان أو عالما أو عابدا أو رأسا أو قدوة أو زعيما: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ*وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

وقصة مَن جاء من أقصى المدينة يسعى، وقصة الذي آمن من آل فرعون. وغيرها كثير...

وفي المقابل أئمة الضلال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ)(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .حينما شرعوا لهم ما لم يأذن به الله= فنبذوه ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وفي آية تجمع الطائفتين: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ وهذا كثير كثير.

عن أسامة بن زيد عن رَسولِ اللَّهِ ﷺ، "قالوا: وما سَمِعْتَهُ يقولُ؟ قالَ: سَمِعْتُهُ يقولُ: يُجَاءُ بالرَّجُلِ يَومَ القِيَامَةِ فيُلْقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُهُ في النَّارِ، فَيَدُورُ كما يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أهْلُ النَّارِ عليه فيَقولونَ: أيْ فُلَانُ ما شَأْنُكَ؟ أليسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بالمعروفِ وتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بالمعروفِ ولَا آتِيهِ، وأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وآتِيهِ".

وفي حديث صححه بعض أهل العلم: "أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلُّونَ" الذين يقودون الناس باسم الشرع والذين يأخذون الناس بالقهر والسلطان فيشمل الحكام الفاسدين والعلماء المضلين الذين يدعون أن ما هم عليه شرع الله، وهم أشد الناس عداوة له.

وفي أبيات منسوبة لعبد الله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوكُ * * * وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها

فالعلماء يهدون أو يضلون بالكلمة والعبّاد بالأعمال أسوة للناس والحُكّام بالسلطان والإلزام والقهر،

- **فالصنف الأول ممن يدخل في أئمة الضلال:** كل من تولى أمر الناس بغير شرعه، جهلة بشرع الله ولا يطلبونه ولا يعملون به ويحكمون الناس بجاهليات متنوعة، ويسومون شعوبهم سوء العذاب وينحون الدعاة والمصلحين ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ويسجنون كثيرا منهم ويخدمون مصالح أعداء الإسلام ويعملون على تشويه الأجيال ويفتحون أبواب الفتن والشبهات والشهوات على المسلمين، ويصدرون تافهين رويبضات على أنهم مفكرون وأبطال ومناضلون، وفسادهم عظيم وصوره متنوعة.
- **الصنف الثاني:** علماءُ السوء الغواة متبعو الهوى طالبو الرئاسة الذي يأكلون بعلمهم ويبذلون لمن يدفع ويتتبعون ظلم الولاة وفجورهم بفرصة فيها مسك ليلبسوها زورا لباس الشريعة ويُخدرون العامة باسم الدين. وهم منتفعون بمال أو منصب، يبيع أحدهم دينه بفلة أو جنسية أو تأشيرة أو موبايل يمصه الطغاة ويعصرونه إلى أخر قطرة ثم يرمون به في سلة المهملات غير مأسوف عليه كما فُعل بأشياعه من قبل = **وهؤلاء** خطرهم عظيم كما ورد عن زياد بن حدير قال: "قال لي عمر رضي الله عنه: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا. قال: يهدمه زلةُ العالم، وجدالُ المنافق بالكتاب، وحكمُ الأئمة المضلين" رواه الدرامي وصححه العلامة الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/٥٧.

وفي رواية أخرى قال عمر ﷺ: "يفسد الناسَ ثلاثةٌ: أئمةٌ مضلون، وجدالُ منافقٍ بالقرآن والقرآنُ حقٌ، وزلةُ العالم" الآداب الشرعية ٢/١١٧.

هؤلاء الفسقة ما هم إلا أدواتٍ في أيدي الطغاة للبطش بالمظلومين من المسلمين، يحرضون على المصلحين بل يدعون لقتلهم وسجنهم ونفيهم؛ ثم ينسبون أنفسهم زورا للسلف، والسف بُرءاء منهم.

قال أبو حامد الغزالي: [فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين، لكونهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا لله النية أثَّرَ كلامُهم في القلوب القاسية فليَّنَها، وأزال قساوتها. وأما الآن فقد قيدت الأطماعُ ألسُنَ العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالَهُم أحوالَهَم، فلم ينجحوا، لو صدقوا وقصدوا حقَّ العلم لأفلحوا، ففسادُ الرعايا بفساد الملوك، وفسادُ الملوك بفساد العلماء، وفسادُ العلماء باستيلاء حبِّ المال والجاه، ومن استولى عليه حبُّ الدنيا، فلم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر، والله المستعان على كل حال] إحياء علوم الدين ٢/٣٥٧.

- **الصنف الثالث من الأئمة المضلين:** عُبَّادٌ جهلةٌ، ضلوا عن علم الشريعة وفقه الدين وحصروا مفهوم العبادة في جزء منه حرفوه ويتعبدون بالبدع والخرافات والدروشة، وهم أيضا ممن يخدرون الأمة ويلهونها عن مطالبها، وانعزلوا عن دور العمل والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهم كذلك من أكثر مطايا الطغاة خضوعاً وذلاً ومهانةً= **فهؤلاء** تُفتح لهم المراكز الثقافية والمساجد والمسارح لإقامة أنشطتهم ويتبوؤون أعلى المناصب ويتلقون دعماً كبيراً من الحكام ومن الدول والمنظمات الغربية بل إن مراكز بحثية غربية أوصت بالترويج لهم ودعمه في مواجهة

ما يسمونه (المصلحين وإشغالهم ولإشعال الفتنة بين الطرفين لتضيع أعمارهم بعيد عن إصلاح الأمة) كما جاء في تقرير مؤسسة راند الأمريكية الصادر سنة ٢٠٠٧م.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سورة التوبة،

فكما كان عند أهل الكتاب من أهل الضلال فكذا عند المسلمين:

قال سفيان بن عيينة: [كَانُوا يَقُولُونَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى].

وقال غير واحد من السلف: [احْذَرُوا فِتْنَةَ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ، فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ] مجموع فتاوى ابن تيمية ١/١٩٧.

وأما العُبَّاد الصادقون فدورهم عظيم في إحياء سنة النبي ﷺ والتمسك بها، وأن يكونوا قدوةً للناس:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: [فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الدّاراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر -الجيلاني-، والشيخ حمّاد، وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء، أو مشى على الماء، أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ وإجماعُ السلف، وهذا كثيرٌ في كلامهم] مجموع الفتاوى ١٠/٥٠٠.

ولا شك أن صلاح هؤلاء صلاح للأمة وضلال هؤلاء الأصناف الثلاثة فيه ضلالٌ لمتبعيهم.

وذُكرت أبواب الفساد ويجمعها: (الضلال والجهل والغواية والهوى).

ولعظم أثر صلاح أو فساد هؤلاء كانت تلك المحاضرات لطلاب العلم من جهات:

١. تحصيل المعرفة ومهاراتها وأدواتها.
٢. سبل الانتفاع بها وأعظمها صلاح القلب وحكمة العقل وقوة العزم وحسن الدعوة إليها.
٣. أن يقوم بدوره في الإصلاح؛ وألا يعجز وهذا الدور يحتاج حكمة في اختيار الدور الذي تجمع نفسك عليه وعلما بوسائله وصبرا وجلدا وعزما عليه وثباتا. وإلا آل أمره إلى عجز الثقات الذي تعوذ منه عمر ﵁.

فهذه ثلاثية الأهداف الكبرى لهذا المشروع الذي أرجو أن أساهم فيه بشيء يتقبله الله وينتفع به الطلاب (المعرفة الصحيحة النافعة والقيام بدور في الإصلاح)

هذا مشروع عمري الذي أسعى له وأجمع قواعده: كيف ينهض طالب العلم معرفة وخلقا ومهارة وسعيا ليقوم بدور بارز في الإصلاح، ولا أعني بالبروز الشهرة بل الدور الصحيح الذي يستحقه كوارث للنبوة.

وأقول: إن كثيرا أو ربما أكثر طلاب العلم يضيعون ويعجزون بين:

جهل بسبب التحصيل أو كسل أو هوى أو تهور وعجلة أو عجز ينزون به في جانب يخافون النقد أو يبحثون عن مشاريع لا خطأ فيها فتؤول إلى ترك العمل كله، أو يشتتون جهدهم وأوقاتهم بين أهداف متنوعة فيضيع العمر دون أن ينجزوا شيئا منها أو يخطئ الطريق فيأكل بعلمه ولحيته ويصير سلعة لمن يشتريه مرة بمال أو سمعة أو منزلة أو مدح وربما صار ظهيرا للمجرمين؛ **ولذلك كانت هذه المحاضرة** (أن تكون ربانيا بعلم الكتاب وتعليمه ودراسته)

أن تكون من المصلحين– معرفة وحكمة وعملا ودعوة وصبرا وجهادا – وسيكون لنا وقفات مع معنى الرّباني

ووقفات مع قول الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فمقتضى الكتاب والحكم والنبوة: العملُ بها.

وليس كل رَباني هكذا، ليس كل من كان إماما موجّها يسوس الناس هكذا، فقد قال تعالى في مقام الذم واللوم:

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

قال أبو جعفر: [يقول تعالى ذكره: هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون في الإثم والعدوان وأكل الرشى في الحكم، من اليهود من بني إسرائيل، ربانيوهم= وهم أئمتهم المؤمنون، وساستهم العلماء بسياستهم = وأحبارهم، وهم علماؤهم وقوادهم = ﴿ عن قولهم الإثم ﴾ يعني: عن قول الكذب والزور، وذلك أنهم كانوا يحكمون فيهم بغير حكم الله، ويكتبون كتبًا بأيديهم ثم يقولون: هذا من حكم الله، وهذا من كتبه؛ يقول الله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾

وفي بيان مقام الربانيين: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾

قال أبو جعفر: [يقول تعالى ذكره: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها﴾ بيانُ ما سألك هؤلاء اليهود عنه من حكم الزانيين المحصنين ﴿ونور ﴾، يقول: فيها جلاء ما أظلم عليهم، وضياءُ ما التبس من الحكم ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾، يقول: يحكم بحكم التوراة في ذلك، أي: فيما احتكموا إلى النبي ﷺ فيه من أمر الزانيين= ﴿ النبيون الذين أسلموا ﴾، وهم الذين أذعنوا لحكم الله وأقرُّوا به].

وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك نبيّنا محمدا ﷺ، في حكمه على الزانيين المحصنين من اليهود بالرجم، وفي تسويته بين دم قتلى النّضير وقريظة في القِصاص والدِّية، ومَنْ قبل محمد من الأنبياء يحكم بما فيها من حكم الله.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾

قال أبو جعفر: [يقول تعالى ذكره: ويحكم بالتوراة وأحكامها التي أنزل الله فيها في كل زمان –على ما أمر بالحكم به فيها–مع النبيين الذين أسلموا= "الربانيون والأحبار".

و**الربانيون**: جمع "رَبَّانِيّ"، وهم العُلماء الحكماء البُصراء بسياسة الناس، وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم= والأحبار= هم العلماء.

وقد بينا معنى " الربانيين " فيما مضى بشواهده، وأقوالَ أهل التأويل فيه.

وأما **الأحبار**: فإنهم جمع "حَبْر"، وهو العالم المحكم للشيء، ومنه قيل لكعْب: "كعب الأحبار ".

وكان الفراء يقول: أكثر ما سمعت العرب تقول في واحد " الأحبار "،" حِبْر " بكسر " الحاء ".

فمن اهتدى بالوحي فعلِم وعلّم وساس الناس للحق فهو رَباني مرضي؛ **ومنهم** من ليس كذلك كرباني اليهود الذين لم ينهوا الناس عن قول الإثم وأكل السُّحت؛

وفي بيان معنى الآيات: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: لا ينبغي لبشر من الخلق، من الناس، وهذه الصيغة –كما هو معلوم – تدل على التحريم الشديد، والمنع الأكيد، وقد جعلها بعض الأصوليين من أظهر الأدلة على التحريم.

قال الطبري: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) و " البشر " جمع بني آدم لا واحد له من لفظه مثل: " القوم " و " الخلق ". وقد يكون اسمًا لواحد " أن يؤتيه الله الكتاب " يقول: أن ينزل الله عليه كتابه " والحكم " يعني: ويعلمه فصْل الحكمة " والنبوة "، يقول: ويعطيه النبوّة =" ثم يقولَ للناس كونوا عبادًا لي من دون الله "، يعني: ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله، وقد آتاه الله ما آتاه من الكتاب والحكم والنبوة.

﴿وَلَـكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾.

" ولكن " يقول لهم: "كونوا ربانيين "، فترك " القول "، استغناء بدلالة الكلام عليه.

ولكن إذا آتاه الله ذلك، فإنما يدعوهم إلى العلم بالله، ويحدوهم على معرفة شرائع دينه، وأن يكونوا رؤساء في المعرفة بأمر الله ونهيه، وأئمةً في طاعته وعبادته، بكونهم معلِّمي الناس الكتاب، وبكونهم دَارِسيه)) انتهى كلام الطبري وسنعود إليه مرة أخرى إن شاء الله.

وقيل: إنّ هذه الآية نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا للنبي ﷺ: أتدعونا إلى عبادتك؟

بهذه القراءة التي نقرأ بها، وهي قراءة ابن عامر، وبها قرأ الكوفيون الثلاثة (عاصم –حمزة –الكسائي)

بضم التاء وكسر اللام مشددا من التعليم، بما يكون منكم من التعليم، وذلك يتضمن أن يكون عالماً بما يُعلِّم، ولذلك فإن قراءة الباقين من السبعة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمون الْكِتَابَ﴾ بدون تشديد اللام من العلم أي: بعلمكم بالكتاب، وهو الكتاب المنزل، هذا القرآن.

ومن شدد أراد بيان أن التعليم هو من العلم، لأن كل معلم عالم بما يعلم، وليس كل عالم بشيء مُعلما،

فالتشديد يدل على العلم والتعليم.

والتخفيف يدل على العلم فقط، وحجة من خفف أنه حمله على ما بعده من قوله: (تدرسون) مُخففا ولم يقل تدرّسون، فكل من درس عَلِم، وليس كل من درَس علَّم،

والخلاصة:

أن القراءة الأولى بالتشديد أعم وأشمل؛ لأنها تدل على العلم والتعليم وفيها ندب إليهما، لأنها جاءت في مقام الحث والمدح(١).

ذكر الطبري أقوالا في تفسير لفظ (ربّاني) منها {فقهاء–علماء–حُكماء–حكماء–أتقياء منسوبا إلى الربّ–ولاة الناس وقادتهم} ثم عقّب: قال: وأولى الأقوال عندي بالصواب في" الربانيين " أنهم جمع " رباني"، وأن " الرباني" المنسوب إلى " الرَّبَّان "، الذي يربُّ الناسَ، وهو الذي يُصْلح أمورهم، و " يربّها "، ويقوم بها، ومنه قول علقمة بن عبدة:

وَكُنْتُ امْرَأً أَفْضَتْ إلَيْكَ رِبَابَتِي * وَقَبْلَكَ رَبَّتْنِي، فَضِعْتُ، رُبُوبُ**

يعني بقوله: " ربتني": ولي أمري والقيامَ به قبلك من يَربُّه ويصلحه، فلم يصلحوه، ولكنهم أضاعوني فضعتُ.

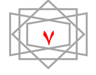
يقال منه: " رَبَّ أمري فلان، فهو يُربُّه رَبًّا، وهو رَابُّه ". فإذا أريد به المبالغة في مدْحه قيل: " هو ربّان "، كما يقال: " هو نعسان " من قولهم: " نعَس يَنعُس ". وأكثر ما يجيء من الأسماء على " فَعْلان " ما كان من الأفعال ماضيه على " فَعِل " مثل قولهم: " هو سكران، وعطشان، وريان " من " سَكِر يسكَر، وعطِش يعطَش، ورَوِي يرْوَى ". وقد يجيء مما كان ماضيه على " فَعَل يَفعُل "، نحو ما قلنا من " نَعَس يَنعُس " و " ربَّ يَرُبّ".

فإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا = وكان " الربَّان " ما ذكرنا، و " الربّاني" هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفتُ = وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين، يَرُبّ أمورَ الناس، بتعليمه إياهم الخيرَ، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم = وكان كذلك الحكيمُ التقيُّ لله، والوالي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وَليه المقسطون من المصْلحين أمورَ الخلق، بالقيام فيهم بما فيه صلاحُ عاجلهم وآجلهم، وعائدةُ النفع عليهم في دينهم، ودنياهم = كانوا جميعًا يستحقون أن [يكونوا] ممن دَخل في قوله عز وجل: ﴿ولكن كونوا ربانيين﴾ .

ف " الربانيون " إذًا، هم عمادُ الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: " وهم فوق الأحبار "، لأن " الأحبارَ" هم العلماء، و " الرباني" الجامعُ إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم)).

وقد علق الشيخ محمود شاكر –رحمه الله –في تعليقه على تفسير ابن جرير على هذا المعنى الذي ذكره أبو جعفر–رحمه الله– وقال: [قلّ إن تجده في كتاب من كتب اللغة، وهو من أجود ما قرأت في معنى الرباني، وهو من أحسن التوجيه في فهم معاني العربية، والبصر بمعاني كتاب الله]

(١) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» لمكي بن أبي طالب (١/٣٥١).



والإمام ابن تيمية رحمه الله في حديثه عن تفسير: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون﴾ وذكر من فسّر الربيين بالربانيين قال: ((وَقَدْ قِيلَ فِي: {رِبِّيُّونَ} هُنَا: **إنَّهُمْ الْعُلَمَاءُ**.

واختاره الرماني والزجاج، وروي عن الحسن وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس وكذلك قال ابن فارس: هم المتألهون العارفون بالله وهؤلاء جعلوا لفظ الربي كَلَفْظِ الرَّبَّانِيِّ

وَعَنْ ابْنِ زَيْدٍ هُمْ: (الْأَتْبَاعُ) كَأَنَّهُ جَعَلَهُمْ المربوبين. **وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ مِنْ وُجُوهٍ:**

أَحَدُهَا: أَنَّ الرَّبَّانِيِّينَ عَيْنُ{لعلّها : غيرُ} الْأَحْبَارِ وَهُمْ الَّذِينَ يُرَبُّونَ النَّاسَ وَهُمْ أَئِمَّتُهُمْ فِي دِينِهِمْ وَلَا يَكُونُ هَؤُلَاءِ إلَّا قَلِيلًا.

الثَّانِي: أَنَّ الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ وَالصَّبْرِ لَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَأَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ رَبَّانِيِّينَ وَإِنْ كَانُوا قَدْ أُعْطُوا عِلْمًا وَمَعَهُمْ الْخَوْفُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الثالث: أَنَّ اسْتِعْمَالَ لَفْظِ الرِّبِّيِّ فِي هَذَا لَيْسَ مَعْرُوفًا فِي اللُّغَةِ

الرَّابِعُ: أَنَّ اسْتِعْمَالَ لَفْظِ الرِّبِّيِّ فِي هَذَا لَيْسَ مَعْرُوفًا فِي اللُّغَةِ بَلْ الْمَعْرُوفُ فِيهَا هُوَ الْأَوَّلُ وَالَّذِينَ قَالُوهُ قَالُوا: هُوَ نِسْبَةٌ لِلرَّبِّ بِلَا نُونٍ وَالْقِرَاءَةُ الْمَشْهُورَةُ (رِبِّيٌّ بِالْكَسْرِ وَمَا قَالُوهُ إنَّمَا يَتَوَجَّهُ عَلَى مَنْ قَرَأَهُ بِنَصْبِ الرَّاءِ وَقَدْ قُرِئَ بِالضَّمِّ فَعُلِمَ أَنَّهَا لُغَاتٌ.

الْخَامِسُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ كُلَّ مَنْ يَأْمُرُهُ بِالْجِهَادِ سَوَاءٌ كَانَ مِنْ الرَّبَّانِيِّينَ أَوْ لَمْ يَكُنْ.

السَّادِسُ: أَنَّهُ لَا مُنَاسَبَةَ فِي تَخْصِيصِ هَؤُلَاءِ بِالذِّكْرِ وَإِنَّمَا الْمُنَاسِبُ ذِكْرُهُمْ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ الْآيَةَ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَـٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ فَهُنَاكَ ذِكْرُهُمْ بِهِ مُنَاسِبٌ.

السَّابِعُ: قِيلَ: إنَّ الرَّبَّانِيَّ مَنْسُوبٌ إلَى الرَّبِّ فَزِيَادَةُ الْأَلِفِ وَالنُّونِ كَاللِّحْيَانِيِّ وَقِيلَ إلَى تَرْبِيَتِهِ النَّاسَ وَقِيلَ إلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ **وَهَذَا أَصَحُّ** فَإِنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ الزِّيَادَةِ فِي النِّسْبَةِ لِأَنَّهُمْ مَنْسُوبُونَ إلَى تربية الناس وكونهم يُربونهم وَهَذِهِ النسبة تَخْتَصُّ بِهِمْ وَأَمَّا نِسْبَتُهُمْ إلَى الرَّبِّ فَلَا اخْتِصَاصَ لَهُمْ بِذَلِكَ بَلْ كُلُّ عَبْدٍ لَهُ فَهُوَ مَنْسُوبٌ إلَيْهِ إمَّا نِسْبَةَ عُمُومٍ أَوْ خُصُوصٍ وَلَمْ يُسَمِّ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ الْمُتَّقِينَ رَبَّانِيِّينَ وَلَا سَمَّى بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ

فَإِنَّ الرَّبَّانِيَّ مَنْ يَرُبُّ النَّاسَ كَمَا يَرُبُّ الرَّبَّانِيُّ السَّفِينَةَ وَلِهَذَا كَانَ الرَّبَّانِيُّونَ يُذَمُّونَ تَارَةً وَيُمْدَحُونَ أُخْرَى وَلَوْ كَانُوا مَنْسُوبِينَ إلَى الرَّبِّ لَمْ يُذَمُّوا قَطُّ وَهَذَا هُوَ

الْوَجْهُ السابع: أَنَّهَا إنْ جُعِلَتْ مَدْحًا فَقَدْ ذُمُّوا فِي مَوَاضِعَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَدْحًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ خَاصَّةً يَمْتَازُونَ بِهَا مِنْ جِهَةِ الْمَدْحِ وَإِذَا كَانَ مَنْسُوبًا إلَى رَبَّانِيِّ السَّفِينَةِ بَطَلَ قَوْلُ مَنْ يَجْعَلُ الرَّبَّانِيَّ مَنْسُوبًا إلَى الرَّبِّ فَنِسْبَةُ الرِّبِّيِّينَ إلَى الرَّبِّ أَوْلَى بِالْبُطْلَانِ. التَّاسِعُ: أَنَّهُ إذَا قُدِّرَ أَنَّهُمْ مَنْسُوبُونَ إلَى الرَّبِّ: فَلَا تَدُلُّ النِّسْبَةُ عَلَى أَنَّهُمْ عُلَمَاءُ ، **نَعَمْ تَدُلُّ عَلَى إيمَانٍ وَعِبَادَةٍ وَتَأَلُّهٍ وَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ فَكُلُّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَهُوَ مُتَأَلِّهٌ عَارِفٌ بِاَللَّهِ وَالصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ كَذَلِكَ وَلَمْ يُسَمَّوْا رَبَّانِيِّينَ وَلَا رِبِّيِّينَ** وَإِنَّمَا جَاءَ أَنَّ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ لَمَّا مَاتَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْيَوْمَ مَاتَ رَبَّانِيُّ هَذِهِ

الْأُمَّةِ وَذَلِكَ لِكَوْنِهِ يُؤَدِّبُهُمْ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْخُلَفَاءُ أَفْضَلُ مِنْهُمْ وَلَمْ يُسَمَّوْا رَبَّانِيِّينَ وَإِنْ كَانُوا هُمْ الرَّبَّانِيِّينَ وَقَالَ إبْرَاهِيمُ: كَانَ عَلْقَمَةُ مِنْ الرَّبَّانِيِّينَ وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: هُمْ الَّذِينَ يُرَبُّونَ النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ فَهُمْ أَهْلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِخْبَارُ

يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ أَخْبَرَ بِالْعِلْمِ وَرَوَاهُ عَنْ غَيْرِهِ وَحَدَّثَ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَأْمُرْ أَوْ يَنْهَ وَذَلِكَ هُوَ الْمَنْقُولُ عَنْ السَّلَفِ فِي الرَّبَّانِيِّ نُقِلَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: " هُمْ الَّذِينَ يُغَذُّونَ النَّاسَ بِالْحِكْمَةِ وَيُرَبُّونَهُمْ عَلَيْهَا "

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: " هُمْ الْفُقَهَاءُ الْمُعَلِّمُونَ ".

قُلْتُ: أَهْلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ هُمْ الْفُقَهَاءُ الْمُعَلِّمُونَ. وَقَالَ قتادة وَعَطَاءٌ: هُمْ الْفُقَهَاءُ الْعُلَمَاءُ الْحُكَمَاءُ. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: وَأَحَدُهُمْ رَبَّانِيٌّ وَهُمْ الْعُلَمَاءُ الْمُعَلِّمُونَ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: أَحْسَبُ الْكَلِمَةَ عِبْرَانِيَّةً أَوْ سُرْيَانِيَّةً.

وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا عُبَيْدٍ زَعَمَ أَنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْرِفُ الرَّبَّانِيِّينَ.

قُلْتُ: اللَّفْظَةُ عَرَبِيَّةٌ مَنْسُوبَةٌ إلَى رَبَّانِ السَّفِينَةِ الَّذِي يَنْزِلُهَا وَيَقُومُ لِمَصْلَحَتِهَا وَلَكِنَّ الْعَرَبَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ رَبَّانِيُّونَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى شَرِيعَةٍ مُنَزَّلَةٍ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فلم يشتهر هذا الاسم عنهم وحكى ابن الأنباري عن بعض اللغويين أن الرباني منسوب إلى الرب، لأن العلم مما يُطاع الله به، فدخلت الألف والنون في النسبة للمبالغة كما قالوا لحياني إذا بالغوا في وصفه باللحية وهذا قول ضعيف كما تقدم.)) (فصل في حق الله وحق عباده) جامع المسائل (٣/٤٩-٦٦).

قلت: علّق بعض أهل العلم على ترجيح ابن جرير وتخطئته لمن قال: إن الرباني هو العالم أو الفقيه أو ولاة أمور الناس، وقال: قول ابن جرير يجمعُ كل هذه الأقوال؛ **وهذا ليس دقيقا**، فإن ابن جرير يُخطئ الأقوال، لأنه يرى أن الرباني المحمود هذا شخص جامع لخصال، لا يكون إلا بها مجتمعه.

فمن جعل الرباني هو الفقيه أو العالم أو ولي الأمر أو غيره كصفة موجبة لهذا الوصف = فهو مخالف لقول الطبري حيث قال: فـ " الربانيون " إذًا، هم عمادُ الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: " وهم فوق الأحبار "، لأن " الأحبارَ" هم العلماء، و " الرباني" الجامعُ إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم.

وهذه فائدة دقيقة، التمييز بين الحالة التي تصح فيها الأقوال في تفسير لفظة على أنها تفسير بالمثال أو اختلاف تنوع، وبين الخلاف الحقيقي الذي لا يصح فيه الجمع بين الأقوال

ومن مجموع كلام إمام المفسرين والإمام ابن تيمية رحمهما الله = يظهر لنا دلالة لفظ الرباني ونسبته ويظهر عندنا أخطاء هنا:

الأول: من يجعلها نسبةً إلى الربّ، أو صيغة مبالغة أو من يجعلها صفة مدح مطلقة لظنه أنها منسوبة إلى الرب، ويغفل عن مواضع ذُم فيها ربانيو اليهود الذين أمروا بالحكم بين الناس بالوحي قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ

يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾ فلم يكونوا أمناء وكذلك من يجعل الربانية متحقق لمن عنده صفة واحدة كالعلم أو التعليم أو التقوى أو سياسة الناس وولاية الأمر **وهنا يمكن أن نقف مع الصفات التي تجتمع في الشخص ليستحق صفة الربانيّ المحمود المرضي:**

- **الصفة الأولى:** للرباني المحمود: الإخلاص لله تعالى؛ وذلك أن تلك الآيةَ التي ذُكر فيها أمْرُ الناس بأن يكونوا ربّانيين بالعلم والدرس جاءت في سياق نهي مّن أُوتِي الكتاب والحُكم والنبوة أن يقول للناس ﴿كونوا عبادا لى من دون الله﴾ فيكون أخصّ صفة للرباني: الإخلاصَ (ألا يعبد إلا الله) وهو خلاصة دعوة المرسلين وله خُلِقَ الخلق وبه أُمروا، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾

ومن ذلك: أن يكون مخلصا صادقا في دعوته لا يجمع الناس لنفسه، ولا يستعمل ما عنده من علم وحكمة للعلو في الأرض بل يدعوهم إلى الله وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

- **الصفة الثانية:** العلم بالوحي: فهذه متفق عليها: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ وقراءة ((تَعْلَمون)) ولهذا قال سفيان بن عيينة رحمه الله : (ما عَلّموه حتى عمِلوه).

والمقصود بهذا العلم الشريف، العلمُ الشرعي المأخوذ من الوحي، كما قال ابن رجب رحمه الله: (إن العلم النافع من هذه العلوم هو ضبط نصوص الكتاب، والسنة، وفهم معانيها، والتقيد في ذلك).

- **الصفة الثالثة للربّاني:** الفقه في الدين قال الشافعي رحمه الله: (والناسُ في العلم طبقاتٌ، موقعُهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به (القرآن)؛ فحقٌ على طلبةِ العلم بلوغُ غايةِ جهدِهم في الاستكثارِ من علمه، والصبرُ على كل عارضٍ دون طلبه، وإخلاصُ النيةِ لله في استدراك علمه: نصا واستنباطا، والرغبةُ إلى الله في العون عليه، فإنه لا يُدرك خيرٌ إلا بعونه، فإن من أدرك علمِ أحكام الله في كتابه نصا واستدلالا، ووفقه الله للقول والعمل بما علمه = فاز بالفضيلة في دينه ودنياه وانتفت عنه الرِّيَب ونوّرت في قلبه الحكمةُ واستوجب في الدين موضع الإمامة)) ((الرسالة)).

وقال ابن تيمية: «جماع الخير أن يستعين بالله عز وجل في تلقي العلم المأثور عن النبي [فإنه هو المستحق أن يسمى علما...، ولتكن همته فهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه، فإذا اطمأن أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس إذا أمكنه ذلك».

ويقول ابن القيم: «وينبغي أن يفهم عن الرسول [مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به مراده وما قصده من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد من التابع فيا محنة الدين وأهله، والله المستعان».

فالمقصود بالعلم بالوحي فقهُه، وليس مجرد معرفة النص بل فقهه والعلم بما فيه من الأحكام والحِكم

وقد ذُكر صنفان لم ينتفعوا بالمعرفة:

١. مَن لم يفقهه.

٢. ومن فقهه وأعرض عن اتباعه كاليهود وغيرهم.

قال رسول الله ﷺ يصف من يقتلون المسلمين بغير حق ولهم عبادة وقراءة للقرآن: «يقرؤون الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»، فعلاقتهم بالقرآن محصورة في قراءته دون فهم مُراده وفقه أحكامه.

وهذا نصٌ جامع في مقاصد دين الإسلام ويُؤكّد على مركزية طلب العلم بالحق وحُججه، وبيانه، والإحسان إلى الخلق، وحُب الخير لهم، وطلب هدايتهم، ومكارم الأخلاق والأمر بالمعروف والجهاد في سبيل الله في الدِّين، ويُبيّن شمول الرسالة تفاصيل دعوة الرُّسل الكرام والذي يجب أن يكون عليه الدّاعي إلى الله مِن العلم والخُلق: الرسولُ ﷺ بعثه اللهُ تعالى هدىً ورحمةً للعالمين، **فإنه كما أرسله:** بالعلم والهدى والبراهين العقلية والسمعية؛ **فإنه أرسله:** بالإحسانِ إلى الناس، والرحمةِ لهم بلا عوض، وبالصبرِ على أذاهم واحتماله. **فبعثه:** بالعلم، والكرم، والحلم، عليم، هادٍ، كريم محسن حليم صفوح..إلخ

فهو: يُعلم، ويَهدي، ويُصلح القلوب، ويدلّها على صلاحها في الدنيا والآخرة بلا عِوض.

وهذا نعتُ الرسل كلهم؛ وهذه سبيل من اتبعه؛ وكذلك نعت أمته بقوله: ﴿كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنَّاسِ﴾.

قال أبو هريرة: « كنتم خير الناس للناس: تأتون بهم في السلاسل حتى تُدخِلوهم الجنة».

فيُجاهدون -يبذلون أنفسهم وأموالهم -لمنفعة الخلق وصلاحهم، وهم {أي الخلْق} يكرهون ذلك لجهلهم

كما قال أحمدُ في خطبته: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله الموتى، ويُبصِّرون بنور الله أهلَ العمى، فكم قتيلٍ لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍ تائهٍ، قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم!

....

وهو -سبحانه وتعالى -- يُحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها، وهو يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات)) الإمامُ ابن تيمية رحمه الله.

- **الصفة الرابعة للعالم الرباني:** الاستقامة على الدين:

فطلب الوحي والفرحُ به وحبه والإيمان به والتسليم له والاهتداء به والاستقامة عليه مجموع ذلك هو صفة الراسخين في العلم.

وليس ثم موضعٌ يُثنى فيه على العلم والفقه في الدين إلا ويكون المراد العلم النافع، وجاء ذكرُ كثير من أهل المعرفة والعلم في سياق الذم والتحذير لترك موجب العلم من العمل والاستقامة.

العلم النافع سيقود بالضرورة إلى خشية الله تعالى وتعظيم أمره ونهيه، وتأمل قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فالعلم الذي لا يقود إلى الخشية والإنابة ما هو إلا بضاعة دنيوية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقد بسطَ القولَ في تقرير ذلك جمعٌ من العلماء منهم الشاطبي في مقدمة الموافقات، ومن ذلك قوله: (رُوح العلم هو العمل، وإلا فالعلمُ عارية وغير منتفَع به). (الموافقات ١/٦٢).

وقوله: (كل علم شرعي ليس بمطلوب إلا من جهة ما يُتوَسَّل به إليه، وهو العمل). (الموافقات ١/٦٧).

وقوله: (العلم الذي هو العلم المعتبَر شرعًا –أعني الذي مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق – هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان؛ بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه الحامل له على قوانينه طوعًا أو كرهًا. (الموافقات ١/٦٩).

وبيانُ ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]. وفي قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]. وفي قوله سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

فأهل العلم الربانيون يخبتون للوحي إجلالاً واستسلامًا، ويخرون للأذقان سجدًا تعظيمًا وامتثالاً، ويلتزمون قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ويظهر ذلك ببيان حال المعرضين عن هدايات القرآن العظيم؛ فقد وصفهم الله عز وجل في قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. فالإقبال على الوحي والإيمانُ به والتسليم له عند أهل الحق يقابلها شدة النفور والإعراض عند أهل الباطل، وصدّهم الناس عنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

ثم ذكر الشاطبي –رحمه الله– في تفصيل جميل يمكن أن تزن نفسك به حيث بيّن **أن المنتسبين إلى العلم، على ثلاث مراتب:**

المرتبة الأولى: وهم المبتدئون، الطالبون له، لكنهم لم يحصلوا على كماله بعد، وإنما هم في مرتبة التقليد.

يقول: هؤلاء إذا دخلوا به –اشتغلوا بالعلم –فبمقتضى الحمل التكليفي يعملون، وكذلك الترغيب، الترهيب، وهكذا أيضاً الزواجر من الحدود، التعزيرات، وما إلى ذلك، كل ذلك يدفعهم إلى الامتثال، والعمل.

المرتبة الثانية: فوق هؤلاء هم من وقفوا على براهينه، وارتفعوا عن مرتبة التقليد، لكن لم يتحول هذا العلم إلى أن يكون صفة راسخة لهم، وسجية من سجاياهم، وإنما يكون لهم استبصار فيه، ويكون ذلك من جملة الأمور المكتسبة يسترجعونه بنظرهم، وعقولهم، ويستذكرونه، ويحفظونه، وما إلى ذلك، فهو من جملة مُودعاتهم.

يقول: هؤلاء إذا دخلوا في العمل خف عليهم، ولم يكونوا كأصحاب المرتبة قبلهم، لكن مثل هؤلاء أيضاً إنما يحملهم على هذا العمل لربما غير الحدود، والزواجر، والترغيب، والترهيب، ولكن يمكن أن يكون عندهم من الشهوات الغالبة، والرغبات الجامحة في النفوس ما قد يوقعهم بشيء من الزلل، والمخالفة، لكن مثل هؤلاء يقول: يراعون محاسن العادات، ويطالبون أنفسهم بمقتضى هذه المرتبة التي وصلوا إليها في العلم، فيحملهم ذلك على شيء من التماسك، والارعواء، والانزجار، والانكفاف عما لا يليق، وعما يشين؛ حفظاً لمرتبتهم، ومراعاة لهذا العلم الذي يحملونه.

المرتبة الثالثة: هم أهل الرسوخ.

يقول: هؤلاء صار العلم من الأوصاف الثابتة لهم، فهو صفة راسخة، وسجية من سجاياهم.

يقول: هؤلاء لا يُخَلِّيهم العلم، وأهواءهم إذا تبين لهم الحق، بل يرجعون إليه رجوعهم إلى دواعيهم البشرية، وأوصافهم الخلقية.

يقول: هؤلاء أصحاب هذه المرتبة.

ثم ذكر دلائل لهذا: قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَايِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

صاحب هذه المرتبة يا شباب لا يحتاج إلى جهد كبير حتى يؤدي العمل الصالح بل صار من أهله يتغذى به ويطمئن ويسعد.

أحدُ أهم ما تتغيرُ به نظرتُك للعبادات، ويؤثر على أدائك لها: أن تنظر إليها على أنها:

- ✓ لمصلحتك ونفعِك وخيرِك.
- ✓ وأنها حياةُ القلوب، وقُرَّةُ عينٍ، وراحة، وسكن، وفرح، وطمأنينة وسعادة ولذة وحلاوة.
- ✓ ولا تنظر إليها من جهة أنها مُجرد تكليف، وعِبء.
- ✓ أو على أنها مشقة، واختبار، وأن الغرض منها: مُخالَفةُ أهواء النفوس للابتلاء وتحصيل الثواب. إلخ –

{وهذا هو الأصل الذي بنى عليه الصوفيةُ والمعتزلةُ قاعدةَ: الأجر على قدر المشقةِ ومُخالفةِ هوى النفس، وأنّ الشرعَ تكليفٌ، ومشقةٌ ومجردُ ابتلاء واختبار} ...

أما ما دل عليه الوحي وهدي النبي ﷺ وصحابته فهو في بيان آثار العبادة وثمراتها وفرح النفوس بها ونحو ذلك.

وهذا معنى قول بعضهم: إنّ في الدّنيا جنةً من لم يدخلْها فهو محروم. هي جنةُ الطاعة لله. أو بشكل عام (حُبُّ ما تعمل)

وقد يكون في الشريعة ما فيه تكليف أو مشقة أو ما يخالف ما تهواه لإصلاح النفس وتزكيتها. لكن لا يصح أن يُجل ذلك السمة العامة أو الغالبة أو الغاية من التشريع ...وربما نأتي على تفصيل ذلك إن شاء الله

هذه النقطة جوهرية في كل عمل شريف تقوم به، هذا هو الذي يتحول به العمل من مُستراحٍ منه إلى مُستراَحٍ به فالناس فيما يقومون به من أعمال -أي عمل سواء كان عبادة أو غيرها من أمور الحياة {رَبَّة منزل، نجّار، نقّاش، طبيب، مهندس، حِرفي، ميكانيكي...} **فالناس في أعمالهم صِنفان:**

- ✓ مُحِبٌ لعمله مُستمتعٌ فرِحٌ مسرور مُبتهِج به سعيدٌ يفعله بحُب.
- ✓ أو مُجرد مُوظَّف مُؤدِّي، مُكرَه، مُجْبَر، مخنوق، مُتكلِّف.

وسيأتي إن شاء الله مزيد تفصيل لبيان آثار العبادة والعمل الصالح على العبد.

ومَن لم يَصُن نفسَه لم ينفعْه علمُه:

- أن تجتهد في تحصيل المعارف وتنمية المهارات واكتساب القدرات.... **هذا شيء.**

-وأن تجتهد في طلب الاستقامة عليها ظاهرا وباطنا لتنتفعَ بها في دِينِك وصلاح قلبك وحُسن خلقك، وأن يفتح الله لك قلوبَ الناس لينتفعوا مما عندك= **فذاك شيء آخر تماما.**

وكم من شخصٍ حصّل معارف كثيرة ومهارات متنوعة ولديه لسان ومنطق، لكنه لمرضِ قلبه أو ضعفِ حكمته أو لسوءِ خلقه أو لقلة مروءته أو لسلاطة لسانه = لم ينتفع هو بعلمه على الوجه المطلوب، ولم ينتفع الناسُ به، بل انفرط عقدُ عمُره فيما لا ينفع واستُهلِكتْ طاقاتُه فيما ضرُّه أقربُ من نفعه، وأدخل نفسَه وغيرَه في خصوماتٍ وعداواتٍ وجدالٍ فارغ مُحِق به بركة العلم وحُرِم به الخير، وهو بأفعاله يصُدّ الناس عنه ويُنفِّرهم عنه ويقطعُ الطريقَ عليهم، وربّما أخرج ذلك كله في صورة النِّضال والصبر الحق ونَيل الأذى في سبيله، وأنّه مظلومٌ مُفترى عليه ونحو ذلك.

ولا يدري ذلك المغبونُ وأمثالُه: أنه هو الظا لمُ والمظلومُ حيثُ لم يَصُن نفسَه!

وقد تعوَّذ النبي الكريم ﷺ من علمٍ لا ينفعُ.

وصدق الشافعيُ رحمه الله حيث اختصر القصةَ في قوله: (ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه).

وموضوع الاستقامة على الهدى هذا بالتحديد أخصُّ موضوعات تلك المحاضرة وسنأتي عليها بشيء من التفصيل إن شاء الله.

- **الصفة الخامسة للرباني:** الحكمة:

في فقه الشريعة ومع النفس وفي الدعوة والتعليم والإصلاح.

وقد جاء عن ابن عباس -كما في الصحيح تعليقاً في كتاب العلم -في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

قال: أي: حكماء، فقهاء.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النَّبي ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلِّمها».

قال النَّووي: (ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها، معناه: يعمل بها ويعلِّمها احتسابًا، والحكمة: كلُّ ما منع من الجهل، وزجر عن القبيح)

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمَّني رسول الله ﷺ، وقال: «اللهمَّ علِّمه الحِكْمَة».

قال ابن حجر: (اختلف الشُّرَّاح في المراد بالحِكْمَة هنا، فقيل: القرآن، كما تقدم، وقيل: العمل به، وقيل: السُّنَّة، وقيل: الإصابة في القول، وقيل: الخشية، وقيل: الفهم عن الله، وقيل: العقل، وقيل: ما يشهد العقل بصحته، وقيل: نور يُفرِّق به بين الإلهام والوسواس، وقيل: سرعة الجواب مع الإصابة. وبعض هذه الأقوال ذكرها بعض أهل التَّفسير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، **والأقرب** أنَّ المراد بها في حديث ابن عباس: الفهم في القرآن).

قلتُ: الحكمة في فقه الوحي والعمل به والدعوة إليه والاستدلال له وبيانه وردّ الباطل فالحكمةُ إذن ليس مجرد المعرفة بالحكم بل حُسن فقهه والعمل به والدعوة إليه.

باختصار: هي فهم المعلومة في سياقها الخاص والعام وجمعِ النظائر ومعرفة الوجوه، ووضعها في موضعها اللائق، وفِقه الفُروق الدقيقة بين الصور التي تبدو متماثلة

ومن أعظم الفقه: تصورُ الشريعة وأحكامها بشكل متكامل مع الحكمة في فقهها ومعرفة موضع الأحكام، والجمع بينها ووضع الحكم في سياقه.

وأن تعرف: متى يُستدعى الحكم الفلاني، ومتى يكون غيره أنسب وأحسن.

ومنه قوله: ﴿اتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم﴾ وكله خيرٌ وهدى، لكن تختارُ منه في كل موقف أو صورة أو واقعة أو نازلة ما يناسبها وهنا يأتي ((الحلم والأناة)) الحِلمُ في التصور، والأناةُ في الحكم والعمل.

فأنت تحتاج عند كل باب إلى خصال:

حسن التصور ودقتُه–جمع كل ما يمكن أن يفيد في فقه المسالة من الآيات والأحاديث والآثار والأقوال والحُجج–الدراسة النقدية لتمييز ما يدخل تحت الباب ويصح ثبوتا ودلالة–حُسن الفهم — ثم الحكمة في وضع المعلومة واستثمارها

فالخلاصة: حُسن تصور–شمولية الجمع–النقد–الفهم–الحكمة في التطبيق

«العلم بصحيح القياس وفاسده من أجل العلوم، وإنما يَعرف ذلك من كان خبيرا بأسرار الشرع ومقاصده وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من المحاسن التي تفوق التعداد وما تضمنته من مصالح العباد في المعاش والمعاد.».

ومن أمثلة الفقه في وضع الشيء في موضعه عن أبي مسعود الأنصاري قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنِّي والله لأتأخَّر عن صلاة الغداة مِن أجل فلان ممَّا يطيل بنا فيها، قال: فما رأيتُ النَّبيَّ ﷺ قطُّ أشدَّ غضبًا في موعظة منه يومئذ، ثمَّ قال: يا أيُّها النَّاس، إنَّ منكم مُنَفِّرين؛ فأيُّكم ما صلَّى بالنَّاس فليوجز، فإنَّ فيهم الكبير والضَّعيف وذا الحاجة».

ومنه: معرفة الحقوق والجمع بينها كما في تعليم سلمان الفارسي لأخيه أبي الدرداء عندما زاره فوجده قد انقطع للعبادة حتى أهمل حق زوجته وحق نفسه. فقال «إنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ

كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ». وقد أقره النبي ﷺ على ذلك بقوله: «صدق سلمان». وفي رواية: «إن سلمان أفقه منك»، وفي رواية: «لقد أوتي سلمان علما».

وقد صرح النبي ﷺ بذلك لعبد الله بن عمرو وقد بلغه أنه يقوم الليل كله، ويصوم الدهر كله، ويختم القرآن في كل ليله فقال: «فلا تَفْعَلْ، قُمْ ونَمْ، وصُمْ وأَفْطِرْ، فإنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حقًّا، وإنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا».

وفي التعليم والدعوة والإصلاح:

قال الإمام البخاري: ويقال "الرباني" الذي يربي بصغار العلم قبل كباره.

وهذا من صور الحكمة في تعليم الناس وإصلاحهم = فالذي يربي بصغار العلم قبل كباره هذا هو الحكيم، الذي يحسن سياسة الناس، وتربية الناس، وتعليمهم، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾

وقد أورد البخاري –رحمه الله –باباً فيمن حدث قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا: «وقَالَ عَلِيٌّ حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، والمراد بقوله: " بما يعرفون " أي يفهمون.

وزاد آدم بن أبي إياس في كتاب العلم له عن عبد الله بن داود عن معروف في آخره " ودعوا ما ينكرون " أي يشتبه عليهم فهمه.

ومثله قول ابن مسعود: «ما أنت محدثا قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » رواه مسلم.

فالأفكارُ الخطأ التي تريد أن تنتزعها من نفوس الناس لتضع مكانها البديلَ الصحيح تحتاج من: (النيّةِ، والحرص، والرحمة، والحكمة، والحلم، والأناة، والحُجّة، والتمهيد، والمقدمات، والصبر، والتكرار = بقدر ثباتها ورسُوخها وتجذّرها في نفوسهم ذاك طريق المرسلين والربّانيّين من المصلحين

إن لم تفعلْ كنتَ من حيث لا تشعر سببًا لصدّهم عنها ونفورهم منها، وتمسّكهم بما هم عليه!

- **الصفة السادسة:** تعليم الناس الوحي وتفسيره لهم ودعوتهم إليه: ﴿بما كنتم تُعلّمون الكتاب﴾.

فهم مع كونهم يطلبون علم الكتاب ويؤمنون به ويفرحون به ويحبونه ويُسلمون له ويستقيمون عليه =يدعون غيرهم إليه ويُعلمونهم إياه ويحثونهم على اتباعه ويدلونهم على ما فيه من الحِكم والخير والهدى، فهم من خير المنتفعين برسالة النبي محمد ﷺ «مثَلُ من فقِه في دين الله فعلِم وعلّم ونفعه الله بما بُعِث به».

وكثيرا ما أقول لأصدقائي: قُدرتُك على ألّا تسبح مع التيّار الخطأ الذي يسبح فيه غيرُك= **فهذه قوّة،**

لكنّ القويّ حقّا: مَن يكون هو التيّارَ!

نعم، يكونُ هو التيّارَ فيأخذُ مَن حوله إلى ما يراه حقا.

يحرِصُ عليهم ويُوجِّههم ويُمهّد لهم ويرفع هِمّتهم

ويُعينهم ويصبر عليهم. فما يلبثُ مَن أعانهم = أن يكونوا هم عونًا له وسندًا ليُكملوا الطريق معًا.

فلتكن حريصا على من الناس (لقد جاءكم رسول) – دعوة يوسف عليه السلام للسجينين.

نموذج: ابن تيمية

فلما دخل سجون مصر وجد السُجناء في ضياع وقت ولعب ولهو، فجدّ معهم حتى حوّلهم إلى أهل استقامةٍ وطلب علمٍ وتتلمذوا عليه، وكثير منهم يرفض الخروج من السجن ويرغب البقاء فيه مع ابن تيمية لِما وجد من العلم والعمل والخير الواسع.

بل إنَّ بعضهم كان يخرج ثم يعود إلى السجن يطلب أن يبقى فيه لأنه فقد الفوائد التي لم يجدها إلا عنده...

فصار البُعدُ عنه حبسًا ووحشة، والبقاءُ في سجنه حُريّةً وأُنسًا!

فكُن_تيّار_خيرٍ

ولا تكتفِ بأن تسبح وحدك ضد التيار الخطأ.

- **الصفة السابعة:** الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسياسة الناس وتدبير، وتبصيرهم وتثبيتهم عند الفتن وتذكيرهم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة:٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥].

فدلّت هذه الآيات أنّه، سبحانه، آتاهم الكتاب، واستحفظهم إيّاه؛ ليُحكّموه بينهم، ويعملوا به، ويبلّغوه، فأعرضوا عن ذلك كلِّه، وعطلّوه، وكتموا منه ما كتموا، وعِوَضًا عن جعله سببًا للآخرة جعلوه سببًا للدُّنيا التي ركنوا إليها، فأكلوا به أموال النّاس بالباطل، فأصابهم من جرَّاء ذلك ما أصاب صاحبهم الذي قصَّ الله، سبحانه وتعالى، نبأه علينا، وطلب منّا أن نتفكّر في شأنه، وذلك في قوله، عزَّ من قائل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

قال ابن عبّاس، رضي الله عنهما: «أُوتي كتابًا، فأخلد إلى شهوات الأرض ولذّتها وأموالها، لم ينتفع بما جاء به الكتاب»، وقال مجاهد (ت١٠٤هـ)، رحمه الله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾: «هو مَثَلُ الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به».

قال الواحدي (ت٤٦٨هـ)، رحمه الله: «هذه الآية هي أشدّ الآي على ذوي العلم، وذلك أنّ الله، تعالى، أخبر أنّه آتاه آياته: من اسمه الأعظم، والدّعوات المستجابة، والعلم، والحكمة، فاستوجب بالسُّكون إلى الدّنيا، واتّباع الهوى، تغييرَ النّعمة عليه والانسلاخَ منها، ومَن الذي يسلم من هاتين الخَلّتين إلا من عصمه الله!»

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : «إنَّهُ لمْ يكنْ نَبِيٌّ قَبلي إلاَّ كان حَقًّا عليهِ أنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ على ما يَعْلَمُهُ خيرًا لهُمْ ويُنْذِرَهُمْ ما يَعْلَمُهُ شَرًّا لهُمْ وإنَّ أُمَّتَكُمْ هذه جُعِلَتْ عَافِيَتُها في أولِها وإنَّ آخِرَهُمْ يُصِيبُهُمْ بَلاَءٌ وأُمُورٌ تُنْكِرُونَها ثُمَّ تَجِيءُ فِتَنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُها بَعْضًا فيقولُ المؤمنُ هذه مُهْلِكَتِي ثُمَّ تَنْكَشِفُ ثُمَّ تَجِيءُ فِتْنَةٌ فيقولُ المؤمنُ هذه مُهْلِكَتِي ثُمَّ

تَنْكَشِفُ فمَنْ سَرَّهُ أنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النارِ ويُدْخَلَ الجنةَ فَلْتُدْرِكْهُ مَوْتَتُهُ وهوَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ ولْيَأْتِ إلى الناسِ الذي يحبُّ أنْ يَأْتُوا إليهِ».

الإصلاح مهمة الأنبياء والرسل والعلماء الربانيين وبعض المتقين:

هي مهمة يتعبد بها هؤلاء ربهم، ويرحمون بها الخلق، ويشفقون عليهم، مما يكون به إصلاح الأرض التي تعمر بالطاعة. فقد يتخاذل بعض الصالحين والعلماء والدعاة عن نصرة إخوانهم المصلحين، ويؤثرون الصمت والسكوت، تقديماً لسلامتهم، وحفاظاً على مصلحتهم، ليس عن سوء طوية، ولكنه العجز وظن السلامة، وهذا مخالفٌ لنصرة الحق وأهله، وهو ضعف وقتل للهمة، وفيه موافقة لسبيل الإفساد وأهله

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]،

أقول: سيبقى أكبرُ عدوٍ لمنْ ﴿إِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ﴾ = هو ﴿مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ﴾؛ فالذي يشري نفسه ابتغاء مرضات الله هو مُحتسِبٌ في مواجهة أهل الفساد، جزءٌ عظيمٌ من صفقته مع الله الإنكارُ على المجرمين والظالمين الصّادّين عن سبيل الله، معنى عظيم جدا ودقيق في التدافع بين المصلحين المجاهدين وبين المفسدين.

وفيه استنباط دقيق جدا، و مُدارسة العلم و القرآن: قال ابنُ زيد في قوله: ﴿وإذا قيلَ له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا صلى السُّبْحة وفرغ، دخل مربدًا له، فأرسل إلى فتيان قد قرأوا القرآن، منهم ابن عباس وابن أخي عيينة، قال: فيأتون فيقرأون القرآن ويتدارسونه، فإذا كانت القائلة انصرف. قال فمرُّوا بهذه الآية: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

قال ابن زيد: وهؤلاء المجاهدون في سبيل الله

فقال ابن عباس لبعض من كان إلى جنبه: اقتتل الرجلان؟

فسمع عمر ما قال؛ فقال: وأيّ شيء قلت؟

قال: لا شيء يا أمير المؤمنين!

قال: ماذا قلت؟ اقتَتل الرجلان؟

قال فلما رأى ذلك ابن عباس قال: أرى ههنا مَنْ إذا أُمِر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم، وأرى من يَشري نفسه ابتغاءَ مرضاة الله، يقوم هذا فيأمر هذا بتقوى الله، فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم= قال هذا: وأنا أشتري نفسي! فقاتله= فاقتتل الرجلان! فقال عمر: لله تلادك يا ابن عباس.

قال الطبري بعد ذكر الخلاف في معنى الآية والمقصودين بها، **الأَولى**: ((أن يكون عُني بها الآمرُ بالمعروف والناهي عن المنكر.

وذلك أن الله جل ثناؤه وصَف صفة فريقين: **أحدهما** منافقٌ يقول بلسانه خلافَ ما في نفسه، وإذا اقتدر على معصية الله ركبها، وإذا لم يقتدر رَامَها، وإذا نُهى أخذته العزّة بالإثمّ بما هو به إثم، **والآخر** منهما بائعٌ نفسه، طالب من الله رضا الله. فكان الظاهر من التأويل أن الفريقَ الموصوف بأنه شرى نفسه لله وطلب رضاه، إنما شراها للوثُوب بالفريق الفاجر طلبَ رضا الله. **فهذا هو الأغلب الأظهر من تأويل الآية**)).

يشري دلالتان:

- ✓ يضحي بكل شيء في سبيل دينه (كصهيب)
- ✓ الصورة الثانية: يصبر على دينه وإن قُتل (كخُبيب)

- **الصفة الثامنة للرباني المحمود:** القدوة:

يعني مجموع هذه الأوصاف تمثل هذا الأمر، وهو أن يكون قدوة للناس: ﴿وَلَـٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

وهذا في رأيي أعظم ما أمر به رسل الله: البلاغ والاستقامة بما أمروا ليكونوا أسوة:

قَالَ شعيبٌ عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

فالرباني يربي الناس بقوله وفعله، وفعلُه أبلغُ.

ومن هذا الباب قال ابنُ سيرين: ((إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم)).

وقال مالك –رحمه الله –: (لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سوى ذلك، لا يؤخذ من سفيه معلن بالسفه، وإن كان أروى للحديث، لا يؤخذ من كذاب في أحاديث الناس، وإن كنتَ لا تتهمه أنه يكذب على رسول الله ﷺ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى هواه، ولا من شيخ له فضل، وعبادة إذا كان لا يعرف ماذا يحدِّث.

وجاء عن إبراهيم النخعي: (كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته، وإلى صلاته، ثم يأخذون عنه، ينظرون إلى سمته، وإلى صلاته).

وجاء عن أبي العالية: (كنا إذا أتينا الرجل لنأخذ عنه نظرنا إلى صلاته، فإن أحسن الصلاة أخذنا عنه، وإن أساء الصلاة لم نأخذ عنه).

وأقولُ: المتعلِّم لا شك ناظر إلى فعل معلمه ومُحاكمه إلى قوله

مع التنبيه على أن بعض ما يُعاب على أهل الفضل كثير منه أمور خلافية أو اجتهادية سائغة أو هي مباحة أو لا تؤثر أو قليلة نادرة ليست غالبة

إذن: كن على حرص وفقه وعلم ودقة، ولا تكن خفيفا متعجلا في الحكم على الناس **فعندنا هنا جهتان:**

- ✓ **في نفسك:** اجتهد ألا تكون سببا في تنفير الناس عنك، وانظر إلى قولك وفعلك كيف يُفهم عنك، ولكن افعل ذلك لوجه الله، وتشجيعا للمتلقي على الانتفاع بما عندك وألا تكون عونا للشيطان عليه.

✓ **وفي غيرك:** لا تتعجل في الحكم، وانتفعْ بخير ما عندهم؛ ولا أحد ينكر أبدا أثر خلق المعلّم وأثره على المتلقي فهم يفهمون من خلال الممارسة العملية التي يشاهدونها فيه أعظم مما يفهمون من العبارات، والكلام؛ لأن القدوة أبلغ في إيصال المعنى، والمفهوم الذي يدعو إليه، ويعلمه.

والقدوات المصلحون أعظم ما يتصفون به القوة والأمانة وأعظم الأمانة: إرادة الله والدار الآخرة؛ بل نفس الآية تدل عليه أعظم دلالة: ﴿كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَـكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فبما آتاه الله من علم وحكمة وحُكم لا ينبغي أن يدعو لنفسه ويُحزّب الناس له ويبغي بذلك العلوَّ في الأرض أو الفساد.

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله﴾. وبقدر ذلك يهتدي في دعوته وإصلاحه؛ ويناقض ذلك من كان يريد الدنيا وهو صاحب علم، أو من أراد الآخرة وهو جاهل.

وأحبُّ أن أختم تلك الفقرة بهذا النص الطويل المهم لابن القيم رحمه الله: ((كلُّ من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبَّها؛ فلا بدَّ أن يقول على الله غيرَ الحقِّ؛ في فتواه وحكمِه، في خبرِه وإلزامِه؛ لانَّ أحكام الربِّ سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيَّما أهل الرياسة والذين يتَّبعون الشَّهوات؛ فإنَّهم لا تَتِمُّ لهم أغراضُهم إلاَّ بمخالفة الحقِّ ودفعه كثيراً؛ فإذا كان العا لم والحاكم محبين للرياسة، متَّبعين للشهوات لم يتمَّ له ذلك إلا بدفع ما يضادُّه من الحقِّ، ولا سيَّما إذا قامت له شبهةٌ، فتتَّفقُ الشبهةُ والشهوةُ، ويثَورُ الهوى، فيَخفَى الصوابُ، ويَنطمِسُ وجهُ الحقِّ! وإن كان الحقُّ ظاهراً لا خفاءَ به ولا شبهَةَ فيه أقدمَ على مخالفته، وقال: لي مخرج بالتوبة.

وفى هؤلاء وأشباههم قال تعالى:﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾[مريم:٥٩].

وقال تعالى فيهم أيضا:﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأعراف:١٦٩].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرضَ الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيُغفَر لنا! وإن عَرضَ لهم عرضٌ آخر أخذوه؛ فهم مُصرُّون على ذلك، وذلك هو الحاملُ لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون: هذا حُكمه وشرعه ودينُهُ! وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلافُ ذلك، أوْلا يعلمون أن ذلك دينُهُ وشرعُهُ وحكمُهُ! فتارةً يقولون على الله مالا يعلمون، وتارةً يقولون عليه ما يعلمون بطلانه!

وأمَّا الذين يتَّقون فيعلمون أنَّ الدار الآخرة خيرٌ من الدُّنيا، فلا يَحمِلُهم حبُّ الرياسة والشهوة على أن يُؤْثِروا الدُّنيا على الآخرة.

وطريقُ ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسُّنَّة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكَّروا في الدُّنيا وزوالها وخسَّتها، والآخرةِ وإقبالها ودوامِها.

وهؤلاء لابدَّ أنَ يبتدِعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران؛ فإنَّ اتِّباع الهوى يُعمِي عينَ القلب؛ فلا يُميِّزُ بين السنة والبدعة، أو يُنْكِسُهُ؛ فيرى البدعة سنةً والسنة بدعةً.

فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدُّنيا واتَّبعوا الرياسات والشهوات.

وهذه الآيات فيهم إلى قوله:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ فهذا مَثَلُ عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

وتأمَّل ما تضمَّنته هذه الآية من ذمّة، وذلك من وجوه:

أحدُها: انه ضَلَّ بعد العلم، واختار الكفرَ على الإيمان عمداً لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقةَ من لا يعود إليه أبداً؛ فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخُ الحيَّةُ من قِشْرِها، ولو بقي معه منها شيءٌ لَم ينسلِخْ منها.

وثالثها: أنَّ الشيطان أدرَكهُ ولحقهُ بحيثُ ظَفِرَ به وافترسَهُ، ولهذا قال فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ولم يقل: تبعهُ؛ فإنَّ في معنى فَأَتْبَعَهُ أدركه ولَحِقَه، وهو أبلغ من (تبِعَهُ) لفظاً ومعنى

ورابعُها: أنَّه غَوَى بعد الرُّشد، والغيُّ: الضَّلالُ في العلم والقصد، وهو أخصُّ بفساد القصد والعمل؛ كما أنَّ الضَّلال أخصُّ بفساد العلم والاعتقاد؛ فإذا أُفرِدَ أحدُهما دخلَ فيه الآخرُ، وإن اقترنا فالفرقُ ما ذُكِر.

وخامسُها: أنَّه سبحانه لم يشأ أن يرفعهُ بالعلم، فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يُرفَعْ به، فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخفَّ لعذابه.

وسادسُها: أنَّه سبحانه أخبر عن خِسَّةِ همَّته وأنَّه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعُها: أنَّ اختيارَه للأدنى لم يكن عن خاطرٍ وحديث نفس، ولكنَّهُ كان عن إخلادٍ إلى الأرض، وميل بكلِّيتِهِ إلى ما هناك، وأصلُ الإخلاد اللزومُ على الدَّوام، كأنَّه قيل: لزِم الميلَ إلى الأرض، ومن هذا يُقالُ: أخلد فلانٌ بالمكان: إذا لزم الإقامةَ به ...ثم قال:

وثامنُها: أنه رَغِبَ عن هداهُ، واتَّبع هواهُ، فجعل هواهُ إماماً له يقتدي به ويتَّبِعُهُ.

وتاسعُها: أنَّه شبَّهَهُ بالكلب الذي هو أخسُّ الحيوانات هِمَّةً، وأسقطُها نفساً، وأبخلُها وأشدُّها كَلَباً، ولهذا سمي كلباً.

وعاشرُها: أنَّه شبَّه لَهَثَهُ على الدُّنيا، وعدمَ صبرِهِ عنها، وجَزَعَهُ لفقدها، وحرصه على تحصيلها؛ بلَهَثِ الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطَّرْدِ، وهكذا هذا: إن تُرِكَ فهو لَهْثَانُ على الدُّنيا، وإن وُعِظ وزُجِر فهو كذلك؛ فاللَّهَثُ لا يُفارِقُهُ في كلِّ حال كَلَهَثِ الكلب.

قال ابنُ قتيبة: (كلُّ شيءٍ يَلهَثُ فإنَّما يَلْهَثُ من إعياءٍ أو عطش، إلاَّ الكلب؛ فإنه يلهثُ في حال الكلال وحال الراحة، وحال الرِّيِّ وحال العطش، فضربهُ الله مثلاً لهذا الكافر، فقال: إن وعظتَهُ فهو ضالٌ، وإن تركتهُ فهو ضالٌّ؛ كالكلب؛ إن طردْتَهُ لَهَثَ، وإن تركتَهُ على حالِهِ لَهَثَ.

وهذا التمثيلُ لم يَقَعْ بكلِّ كلبٍ، وإنما وقع بالكلبِ اللاهثِ، وذلك أخسُّ ما يكون وأشنعُهُ.
فهذا حالُ العالم المؤثِر الدُّنيا على الآخرة...))

وقال: ((علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم. فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالُهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له، فهُم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاعُ الطرق)

وقال عن العبد الجاهل: (فآفتُهُ من إعراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووَجْدِهِ وما تهواه نفسه.

ولهذا قال سفيان ابن عُيينة وغيره: (احذروا فتنةَ العالم الفاجر وفتنةَ العابد الجاهل؛ فإنَّ فتنتهما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ).

فهذا بجهله يَصُدُّ عن العلم وموجبه، وذاك بغيّة يدعو إلى الفُجور.

وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر:١٦-١٧].

وقصتُهُ معروفةٌ، فإنه بنى أساسَ أمرِهِ على عبادة الله بجهلٍ، فأوقعه الشيطانُ بجهله، وكفَّره بجهله.

فهذا إمامُ كلِّ عابدٍ جاهل؛ يَكفُرُ ولا يَدْرِي، وذاك إمام كلِّ عالم فاجرٍ يختارُ الدُّنيا على الآخرة.

وقد جعل سبحانه رِضَى العبد بالدُّنيا وطمأنينتهُ وغفلتهُ عن معرفةِ آياتِهِ وتدبُّرِها والعملِ بها سبَب شقائِهِ وهلاكه.

ولا يجتمع هذان – أعني: الرضى بالدُّنيا والغفلة عن آيات الربِّ -إلا في قلب من لا يؤمنُ بالمعاد ولا يرجو لقاء ربِّ العباد، وإلا فلو رَسَخَ قدمُهُ في الإيمان بالمعاد؛ لما رضى الدُّنيا ولا اطمأنَّ إليها ولا أعرضَ عن آيات الله.

وأنت إذا تأمَّلْتَ أحوالَ الناس وجدتَ هذا الضرب هو الغالبُ على الناس وهم عُمَّارُ الدُّنيا، وأقلُّ الناس عدداً من هو على خلاف ذلك، وهو من أشدِّ الناس غُربةً بينهم؛ لهم شأنٌ وله شأنٌ، علمُه غيرُ علومهم، وإرادتُهُ غير إرادتهم، وطريقه غير طريقهم؛ فهو في وادٍ وهم في وادٍ.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس:٧-٨]، ثم ذكر وصف ضدَّ هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس:٩] فهؤلاء إيمانهم بلقاء الله أورثَهم عدَم الرِّضى بالدُّنيا والطُّمأنينة إليها ودوامَ ذكرِ آياته.

فهذه مواريثُ الإيمان بالمعاد، وتلك مواريثُ عدمِ الإيمان به والغفلة عنه.

ولكني أحب أن أذكر تلك القصة ليُفهم الكلام؛ كانت درسا تطبيقيّا لن ينساه: ((لا تتمنّ شهودَ مشهَدٍ غَيَّبَكَ اللهُ عنه)). لا تدري ماذا أنت فاعلٌ فيه. فسَلِ اللهَ العافية.

قصة:

شابٌ ممن يطلبون العلم ولديه حماس (قَوْلي) ويتكلمون كثيرا عن دور العلماء في الصدع بالحق، ويُنكر كثيرا جدا على أولئك الدعاة الذين يُعينون الظالمين بالكلمة والقلم ويلفون ويدورن ويلْوُون النصوص ويُحرّفونها لتسويغ أقوال الحُكام الفجرة وأفعالَهم.

ويقول: ياااا يا الله، كيف لهؤلاء السفلة أن يبيعوا دينهم هكذا، أيمكن لإنسان عنده ذرة عقل أو علم أو خوف من الله أن يجاور الظالمين (رغبةً أو رهبة) أو يُليِّنَ لهم القولَ فضلا عن أن يُعينهم بقلمه وكلمته فضلا عن أن يسعى لشرعنة إجرامهم. كيف هذا؟!

واللهِ دا كنوز الدنيا كلها لا تجعل الإنسان يفعل هذا.

وكنتُ أنا كثيرا ما أقول لهذا الشاب: إنما تُساقُ تلك القصص أمامنا للعِبرة والعِظة، وجميلٌ منك أن تُنكر ذلك بقلبك ولسانك ويدك ما استطعتَ.

ولكن: سَلْ اللهَ العافية ولا تتمنى البلاء، ولا تتعرَّضْ له، ولا ترجو أن تشهدَ مشهدا غَيّبك اللهُ عنه؛ فكان الشابُ لا يُعجبه ذلك. ويراه تقصيرا.

ودارتْ الأيام. ومَرتْ الأيام؛ وقُدِّر أني تقابلتُ أنا والشابُ هذا مع رجلٍ مُحترم طيب ذي وظيفة ومنصب وغِنى { لم يكن الشابُ يعرف ذلك الرجل ولا منصبه ولا غناه ولا وظيفته} ولم يهتم به ولم يُرحب ولم يُسلم عليه بحرارة، ولكن من خلال الكلام عرف الشابُ أن الرجل ذو منصب ومال ويعمل في الجهة الفُلانية = فتغيَّرَ أسلوب الشاب في تعامله مع الرجل تماما، وأقبل عليه يُوقره ويقترب ويُكثر من الكلام معه، ويبتسم، ويحكي له الشابُّ أنه يطلب العلم ويحتاج نفقةً وعنده أوراق يحتاج يعملها....

وكان أحيانا في ثنايا الكلام يسألُ ذلك الرجُلُ ويستفتي في مسائل تخص عمله مِن معاملات مالية (لا يُختلَف في كونها رِبا صريحا) = فإذا بالشاب {طالب العلم الصادع بالحق} يلف ويدور ويحاول أن يعطي المعاملة المالية صفة شرعية ويجعل فيها فُروقا حتى لا تكون رِبا

وفي قضايا أخرى {سياسية} أُثيرتْ صار الشاب يتلطفُ في العبارة ولا يُصرح، وكأنه يخشى أن يقول وجهةَ نظره بصراحة ولا يكون ذلك الرجل موافقا لها فيغضب منه!

كان يحرصُ ذلك الشابُ أن يبدوَ شابا مُتفتحا، فقط لمجرد أنه رأى من الرجل إنكاره على الملتزمين المتشددين، ثم بين حين وآخر يعودُ في حديثه مع الرجلِ عن كونه يحتاج نفقةً وتخليص أوراق... وهكذا

وكنتُ أبيّنُ لهما في الجلسة رأيي وحُكم الشرع في تلك الأمور بحسب علمي. المهم: بعدها قلتُ للشابّ: انظرْ أنت في جلسة جمعتْك برجلٍ ذي منصب ومال وجاه، لم تكن مهتما به أولا، فلما عرفتَ منصبه وماله وجاهه=أقبلتَ ورحّبتَ واقتربتَ وأكثرت من الحديث وكنتَ تُريدُ أن تحوزه لنفسك، ثم بدأتَ تُعرِّض بحالك وفقرِك وحاجتك، بل صرحتَ أكثر من مرة وطلبتَ منه، وقصدتَ أن تُبيّن أنك لستَ مُتشددا كأولئك الذين لا يُحبهم، وحَوّرتَ ولفيت ودُرت لكي(علشان) لا تصرح بوجة نظرك في أمور سياسية خشية ألّا توافق هوى الرجل، وفي معاملات ربوية صريحة

سأل الرجلُ عنها كنتَ تحاولُ أن تفرّق بينها وبين الربا، ثم تعود بين وقت وآخر لتتكلم عن مصالح التي تريد من الرجل أن يساعدك فيها!!!

كُل ذلك التلون والتزيُّن والتكلُّف والتزلُّف والترجّي= في جلسة قصيرة، ومع رجلٍ {وإن كان ذا شيء من المال والمنصب والجاه} لكنه لا يساوي شيئا إذا قارنتَه بأحدٍ من الحُكّام وحاشيتهم

ذلك درسٌ لك لتعلمَ الفرق بين:

العافية والابتلاء، بين المعافَى والمبتلى، وليتعلم أن كثيرا {بل ربما أكثرُ الذين يظنون ونظنُ أنهم ثابتون صادعون بالحق لا يخافون في الله لومةَ لائم} هم في الواقع مُعافون... فقط

لم يُختبروا بعدُ ولو امتُحنوا _ولو باختبار سهل _ لسقطوا

ولو كانت لهم رغبة أو حصلتّ لهم رهبةٌ من أحد فلربما باعوا دينهم أو شيئا منه لأجله، ولِتعلم أن الثبات عند الحقائق والشدائد لا يكون بمجرد المعرفة والمعلومات والجعجعة

ولِتعلم أن من يثق بنفسه ويتعرَّض للبلاء اختيارا ويرجو أن يشهدَ مشاهد ابتلاء ليُرِيَ اللهَ والناسَ صدعَه بالحق، وكيف يكون الثبات عند المِحن= فذلك شخص جاهلٌ مغرور وسيُبتلى= حتما.

ولتعلمَ أنه لا تلازم بين إنكار الباطل، والإنكار على أهله، وبين أن تتمنى أن تُبتلى لتظهر قوتُك وثباتُك!

ولِتعلم أن عافيةَ الله خيرٌ لنا. فسلْه العافية.

واعتنِ بقلبك وأكثر من العمل الصالح وكُفَّ لسانك إلا عن الخير. وأبصِرْ نفسك ونقصَها...

فاللهم ربنا نسألُك العافية – اللهم ربنا اقبِضنا غير مفتونين.

وقريبا من تلك الفكرة قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: ((فعامةُ الناس إذا: أسلموا بعد كفر أو وُلدوا على الإسلام، والتزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله = فهم مسلمون، ومعهم إيمانٌ مجملٌ ولكنّ دخولَ حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئا فشيئا –إن أعطاهم الله ذلك – وإلا فكثير من الناس: لا يَصِلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ولو شُككوا لشكوا ولو أُمروا بالجهاد لما جاهدوا وليسوا كفارا ولا منافقين بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال وهؤلاء إن عُوفوا من المحنة وماتوا= دخلوا الجنة وإن ابتُلوا بمن يُورد عليهم شبهات توجب رَيبهم، فإن لم يُنعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مُرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق.) كتاب الإيمان الكبير.

- **الصفة التاسعة:** الصبر: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾.

نعود لعناصر المحاضرة: إضاءات:

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: "ثُمَّ إِنِّي مُوصِيكَ يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي طَلَبِهِ، وَإِجْهَادِ النَّفْسِ عَلَى الْعَمَلِ بِمُوجَبِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ شَجَرَةٌ وَالْعَمَلَ ثَمَرَةٌ، وَلَيْسَ يُعَدُّ عَالِمًا مَنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمِهِ عَامِلًا.

وَقِيلَ: الْعِلْمُ وَالِدٌ وَالْعَمَلُ مَوْلُودٌ، وَالْعِلْمُ مَعَ الْعَمَلِ، وَالرِّوَايَةُ مَعَ الدِّرَايَةِ.

فَلَا تَأْنَسْ بِالْعَمَلِ مَا دُمْتَ مُسْتَوْحِشًا مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا تَأْنَسْ بِالْعِلْمِ مَا كُنْتَ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ وَلَكِنِ اجْمَعْ بَيْنَهُمَا، وَإِنْ قَلَّ نَصِيبُكَ مِنْهُمَا).

ابنُ القيّم: ((من طلب العلم ليُحيي به الإسلامَ فهو من الصديقين، ودرجته بعد درجة النبوة))

قال حبان بن موسى: ((عُوتِب عبدُ الله بنُ المبارك فيما يُفرِّق من المال في البلدان؟! فقال: ((إني لأعرفُ مكانَ قومٍ لهم فضلٌ وصدقٌ، طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه، والناسُ محتاجون إليهم، وهم بحاجة إلى أنفسهم وذراريهم، فإن تركناهم ضاعَ علمُهم، وإن أعنّاهم بثُّوا العلمَ لأمة محمد –صلى الله عليه وسلم–، لا أعلمُ بعد النبوة أفضلَ من بَثِّ العلم)).

وقال ربيعةُ: ((لا ينبغي لأحدٍ عنده شيءٌ من العلم أن يُضيع نفسَه)).

سُئِل ابنُ عُيينةَ: ما الورعُ؟ ؛ قال: الورعُ هو طلبُ العلم الذي يُعرفُ به الورعُ)).

الشافعي: ((ومَن لم يَصُنْ نفسَه لم ينفعْه علمُه))

محمد بن سيرين: ((إن هذا العلمَ دينٌ، فانظروا عمّن تأخذون دينَكم)).

دخَلَ الحسَنُ البَصريُّ رحمَه اللهُ المسجِدَ، فقعَدَ إلى جَنبِ حَلْقةٍ يَتكلَّمونَ، فأنصَتَ لحديثِهم، ثم قال: هؤلاء قومٌ ملُّوا العِبادةَ، ووجَدوا الكلامَ أهونَ عليهم، وقلَّ وَرَعُهم وتَكلَّموا.

يحي بن أبي كَثيرٍ: ((لا يُستطاعُ العلمُ براحةِ الجِسمِ)).

قال البخاريُّ لتلميذه الفِربْري: ((طِبْ نفسًا، فإنَّ أهلَ الملاهي في ملاهيهم، وأهلَ الصِّناعات في صناعاتهم والتجارَ في تجاراتهم، وأنت مع النبيِّ ﷺ وأصحابِه)).

الشافعيُّ: ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا فَلْيُدَقِّقْ فِيهِ لِئَلا يُضَيِّعَ دَقِيقَ الْعِلْمِ)).

ابنُ تيمية: ((ومعلومٌ أن من اجتمع همُّه على شيء واحدٍ كان أبلغَ فيه ممّن تفرّق همُّه في أعمالٍ متنوعة)).

((رُبما طالعتُ على الآيةِ الواحدةِ نحوَ مائةِ تفسيرٍ ثم أسألُ اللهَ الفهمَ وأقول: يا مُعلم آدمَ علِّمْني)).

الشافعي: ((وددتُ أن الخلق يتعلمون هذا العلم ولا ينسب إليَّ منه شيء. أُثابُ عليه ولا يحمدوني)).

عبد الرحمن بن أبي ليلى: ((لقيتُ مائة من أصحاب النبي ﷺ ما منهم مُحدّثٌ إلا ودّ أخاه يكفيه الحديث، ولا مُفتٍ إلا ودّ أخاه يكفيه الفُتيا)).

أبو عاصم النبيل: ((مَن طلبَ الحديث فقد طلب معالي الأمور فيجب أن يكون خير النّاس)).

الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: ((والواجبُ أن يكون طلبةُ الحديث، أكملَ الناس أدبًا، وأشدَّ الخلق تواضعًا، وأعظمَهم نزاهة وتدينًا، وأقلهم طيشًا وغضبًا، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسنِ أخلاقِ رسول الله ﷺ وآدابه وسيرة السلف الأخيار، من أهل بيته وأصحابه وطرائق المحدثين، ومآثر الماضين؛ فيأخذوا بأجملها وأحسنها، ويصدفوا عن أرذلها وأدونها)).

أعظمُ نصيحةٍ من شيخٍ لتلميذه = تلك التي ذكرها الإمامُ مالكٍ عن المعلّم الذي سأله تلميذٌ عن طلب العِلم، فقال له المعلّم: ((إنَّ طلب العلم لَحسنٌ؛ ولكن انظُرْ إلى الذي يلزمُك من حين تُصبِح إلى حين تُمسي: فالزمْه ولا تُؤثرنّ عليه شيئا)).

